نظرة جديدة لفاضل الربيعي تدعو لتحرير تاريخ فلسطين من الأوهام:

اليمن القديم أرض التوراة والقدس ليست أورشليم!

جورج كدر *

■ ثالوث معرفي جديد قاد المفكر العراقي فاضل الربيعي إلى كشف تاريخي يمكن له أن يغير خارطة الصراع في المنطقة ويقلبها رأسا على عقب، هذا الثالوث تمثل في المزاوجة بين الجغرافية والشعر وتفكيك الأسطورة.

ما فعله الربيعي هو إعادة اكتشاف كتب الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بلسان اليمن ونادرة زمانه المتوفى بعد سنة 344 هـ، وتحديدا منها «صفة جزيرة العرب، والاكليل» وتقديم قراءة جديدة للشعر الجاهلي وإعادة ترجمته للتوارة بنصها العبري بعيدا عما طالها من تزوير، بعد أن أمضى وقتا طويلا في تعلم العبرية في هولندا حيث أمضى فيها 12عاما أسس خلالها لأهم أعماله التي فكك فيها الروايات التوارتية وأعاد صياغتها بفكر عربي خالص بعيدا عن تأثيرات الفكر الاستشراقي.

وكانت نتيجة كل ما سبق مجلدين من خمسة أجزاء حملا اسم فلسطين المتخيلة (أرض التوراة في اليمن القديم) صدرا عن دار الفكر بدمشق وكتابا موجزا عنهما حمل عنوان (القدس ليست أورشليم مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين) الصادر عن دار الريس في بيروت، وهي أعمال تشكل ما يمكن أن يعتبره البعض (خارطة طريق معرفية) ربما تمكّن علماء الآثار من البدء في عمليات تنقيب جديدة خالية من التأثير الاستشراقي لرسم خارطة فكرية لمنطقتنا وصياغة تاريخ جديد نعيد من خلاله اكتشاف أنفسنا، هذا التاريخ لا ينطلق من حفريات وتنقيبات غايتها اختلاق وتزوير التاريخ كما فعل المستشرقون في أرض فلسطين وإنما من إعادة الكشف عن الجانب التاريخي وليس الديني بين صفحات التوراة كما فعل الربيعي.

أسئلة وأسئلة

عمّ تتحدث التوارة وأين هي جغرافيتها ؟ لماذا لم يحدث السبي البابلي ليهود فلسطين كما يزعم المستشرقون؟ ما حقيقة السبي البابلي؟ وكيف أعادت القبائل اليهودية اليمنية العائدة من الأسر البابلي بناء اليهكل في سراة اليمن وليس في فلسطين بل كيف أعادوا بناء أورشليم اليمن؟ ولماذا سقط سفر المكابين من أسفار التوارة بحجة عدم مطابقته لجغرافية فلسطين علما بأن مسرحه الواضح في اليمن؟ لماذا القدس ليست أورشليم؟

أسئلة وأسئلة غيرها يجيب عنها الربيعي في أعماله يمكن تكثيفها بما يلي:

أحداث التوارة لم تجر في فلسطين لأن جغرافية الأحداث التي تصفها التوراة وتسلسلها المنطقي لم تعرفها خارطتها بأي شكل من الأشكال، وحتى اسم الشعب الذي خاض معه اليهود الصراع في الماضي لم يكن اسمه الفلسطينيين وإنما الفلستيين، وأكثر من ذلك اليهودية دين نشأ في جزيرة العرب والعبرية لهجة من لهجات اليمن القديم. وعليه «فإن كل ما ورد في التوارة لا صلة له بفلسطين، بل بيهود اليمن الذين سجلوا تجربتهم الحياتية وقصصهم الدينية ومروياتهم القبائلية، يوم كانوا يعيشون إلى الشرق من صنعاء في مخلاف ـ مملكة صغيرة» وهي حقيقة كما يذكر الربيعي في مقدمة فلسطين المتخيلة «لا يزال يهود اليمن حتى اليوم، يؤمنون بها».

أرض فلسطين وبلاد اليهودية العتيقة

يقول الربيعي: «إن المزاعم الرائجة في كتب التاريخ العربي عما يزعم أنه استيلاء القبائل العبرانية على فلسطين، مستمدة بالكامل من القراءة الاستشراقية الزائفة للتوارة» وبالعودة إلى كتاب (صفة جزيرة العرب) نجد تميزا بين فلسطين التاريخية وبلاد اليهودية العتيقة وهو تصور نقله الهمداني عن بطليموس الذي يرسم حدودا فاصلا بينهما حيث يقول:

«...أما سائر أجزاء هذا الربع الذي يلي وسط جميع الأرض المسكونة، وما يقع في جزيرة العرب منها: مثل: أيدوما وأرض سورية وأرض فلسطين وبلاد اليهودية العتيقة من إيلياء...».

.. وإيلياء ـ إيله كما «يبرهن» الربيعي هي امتداد طبيعي لأرض نجران القديمة التي تشمل إيلة الجبل والقرية حاضرة البحر التي اندثرت وكفت عن الوجود حيث انتقل اسمها مع هجرات القبائل إلى العقبة الأردنية. ويضيف: لقد أرغمت الحروب المتواصلة القبائل العربية العاربة وبعضها كان على دين اليهودية ثم النصرانية على الهجرة نحو حاضرة الامبراطورية الرومانية آنذاك بلاد الشام، والتاريخ المقبول من وجهة نظرنا، يقول الربيعي، لبداية تدفق القبائل العربية العاربة بما فيها بقايا بني إسرائيل من يهود اليمن وسواحل البحر الأحمر وتهامة ونجد واليمامة نحو جنوب الشام (فلسطين) يجب أن يكون في حدود 130 ق.م لأن المعارك كانت لا تزال مستمرة وبقوة زخم مدهشة حتى هذا الوقت، بين القبائل العربية اليهودية بقيادة يهوذا المكابي (القائد اليهودي الذي جمع بين الملك والكهنوت كما يروي ابن العبري في تاريخه) والقوات الرومانية الغازية وفي حدود هذا التاريخ كانت أورشليم عاصمة بلاد اليهودية في سرو حمير ولم يكن اسمها القدس قط.

قدس بلاد الشام وقدس اليمن!

«نشأت هذه المدينة في وقت ما من تاريخ بلاد الشام، عند خط المياه الفاصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت وفي بقعة خصبة مرتفعة وقد يكون ما ميز نشوء المدينة أنها بنيت فوق هضبتين تحدّهما من الغرب السهول الساحلية، ومن الشرق نهر الأردن إلى الجنوب منها، فسلسلة جبال الخليل».

أما القدس كما تصفها التوراة فعلى من يريد الوصول إليها أن يجتاز «صنه وتصعد من جنب إلى قدَش، وعبر وحضر فتصعد أدره» ويصف الرحالة العربي ابن حوقل عام 978م ما يأتي (تبلغ مساحة القدس قدر مساحة الرملة وهي مدينة مرتفعة مبنية على تلال. ويتوجب عليك أن تصعد إليها من كافة الجهات).

يقول الربيعي: إن المطابقة التي قامت بها القراءة الاستشراقية للتوراة، زائفة وتعسفية ولا أساس لها لا في النص الديني ولا في الجغرافيا التي تصوغها التوراة بدقة متناهية لا سبيل إلى الجدال ضدها... فلا وجود لجبل في القدس العربية، كما أنها لا تقع على جبل.

ويضيف: «يقصد بقَدس، الجبل المبارك المسمى جبل قدس ـ بفتح الحرفين الأول والثاني كما يلفظه اليمنيون ـ في مخلاف المعافر القديم نحو 80 كم إلى الجنوب من تعزّ باتجاه عدن، والذي لا يزال معروفا، حيث عاش هناك ذات يوم بعيد في التاريخ، شعب عربي من شعوب وقبائل العرب العاربة، يِدعى بالعبرية فلستيم، وفي العربية الفلس...» ولا يزال الجبل يحتفظ باسم الجماعة القديمة التي تدعى الفلست..

ويخلص الربيعي إلى القول: إن وضع الرواية التوراتية في هذا الإطار الجغرافي هو المفتاح الذهبي في حل ألغاز التوراة برمتها.. والأهم أن التوراة لا يمكن أن تقرأ قراءة صحيحة، إلا إذا وضعت في بيئتها الحقيقية التي ولدت فيها، ونعني هنا البيئة الروحية القديمة لجنوب غرب الجزيرة العربية.

السبي البابلي لأهالي اليمن

حسب الربيعي فإن: «الذين تعرضوا للسبي البابلي كانوا من القبائل العربية اليهودية التي وجدت نفسها، ذات يوم من التاريخ البعيد في مواجهة دامية ومتواصلة مع الامبراطورية البابلية ـ الأشورية (الوثنية). وهؤلاء لا صلة لهم بفلسطين لا من قريب ولا من بعيد. لقد وقع الحدث برمته وبكل تفاصيله الإنسانية المحزنة في سراة اليمن لا في فلسطين».

قائمة السبي البابلي التي أعدها عزرا النبي بعد قرار الملك الفارسي قورش في العام الأول لسقوط بابل عام 539 ـ 540 ق.م تتحدث عن إطلاق سراح من تم سبيهم والسماح بعودتهم إلى أورشليم القديمة (أي أورشليم بيت بوس في سرو حمير) وهي تجمع طائفة نادرة من أَسماء القبائل اليمنية التي لا وجود لها في فلسطين.

يضبط الربيعي الأسماء العبرية باسمها العربي ويذكر مواطنهم في اليمن ومنهم على سبيل المثال:

بنو لخم (بنو بيت لحم) وهم سكان موضع عرف باسم بيت لحم ـ لخم في وادي صيحان من أرض اليمن، أقام بطن من اللخميين في العراق وأسس مملكة الحيرة الشهيرة. بنو جبر ـ بنو جبر. بنو حريشة (حريش)، بنو صيحة (صيحة)، بنو حسفة (حسفة)، بنو رصين (رضين)، بنو ناصح (ناصحة)، بنو شعرائيم (الشعراء)، بنو عَبيد (عَبيد) وهؤلاء كما يقول الربيعي يدعمون فكرة أن الهجرات العربية الأولى (من الطفولة البعيدة للعرب وقبل تكونهم التاريخي كجماعة) قد وصلت إلى العراق القديم بالفعل وأنهم شكلوا ما يعرف بـ«حضارة العبيد التي قد تكون سابقة على ظهور الآكديين، وبنو حقوفة ـ حقف (ويعد وادي الأحقاف جمع حقف من أودية حضرموت في بلد مهرة، وهو رمال تعرف باسم رمال الحقف وفي الموروث الديني والمثيولوجي للعرب القدماء وللقبائل اليمنية فقد دفن النبي هود ـ يهوده (يهوذا) في هذا المكان داخل كهف.

أورشليم في سراة اليمن

«تسمي التوراة أورشليم (بيت بوس) كما أن مخلاف اليهودية عرفت باسم أورشليم أيضا، أي أورشليم اسم يطلق على المملكة ـ المخلاف يهوذة (ما يعرف الاخباريات العربية بقوم هود) باعتباره دار سلام، كما يطلق بيت بوس في آن واحد». كما أن التوراة: «تحدد حدود أورشليم كما يصفها النبي نحميا 446 ق.م الذي تزعم عملية إعادة بناء أورشليم بعد العودة من السبي». و» استنادا إلى النص العبري فقد انطلق نحميا من موضع يدعى شعر (جبل شعر) وليس في فلسطين جبل بهذا الاسم، فبلغ واديا شهيرا يدعى وادي عيان. ثم وصل أثناء تفقده للأسوار المهدمة واديا يدعى ها ـ تنين ـ التنين، حيث رأى بنفسه الخراب الذي عم أسوار المدينة في موضوع فروصيم ـ الفراضم، وشاهد ما تركته النيران هناك من أثر مدمر. ثم اجتاز المكان متجها من جبل شعر ووادي عيان إلى موضع ءل ـ بركت ـ سلوه (مياه سلوة قرب جن) قبل أن يصل وادي ها ـ ملك ـ المالك ثم وادي جنات ـ جنات. وأخيرا وصل نحميا ـ نحمية النبي إلى تحتم وبهمة قبل أن يجتاز الوادي من جبل شعر مرة أخرى في طريق عودته».

قبة الصخرة

إن التوراة بكلمة موجزة قاطعة، على حد تعبير الربيعي، لا تقول أبدا، ولا بأي صورة من الصور أن الأحداث التي ترويها قد جرت أو دارت في فلسطين. كما أنها لا تشير لا من بعيد ولا من قريب لاسم فلسطين أو الفلسطينيين ارتباطا بالأحداث المروية.. لكن خطورة تزوير التاريخ تكمن كما يحذر الربيعي من تشويه «قدسنا» كما يقول حيث « بلغ الهوس ذروته مع الحفريات الأثرية تحت مسجد قبة الصخرة في القدس، بحثا عن بقايا وأبواب أورشليم وخصوصا باب الغنم. وينبه من خطورة سعي التوراتيين إلى المطابقة بين اسم جبل أبو غنيم البعيد عن مسجد قبة الصخرة وبين صأن ـ غنم التوراتية» لأنه «لا يوجد باب قديم لأورشليم يدعى باب الغنم، بل هناك جبل مقدس وشهير في السراة اليمنية هو جبل غنم بالفعل وليس أبي غنيم. ومنه شرع الكاهن شبا بإصلاح أول أسوار أورشليم من موقعه في وادي الجدول حتى وادي (ها ـ مأه)»

الفلستيون

«القراءة الاستشراقية المخيالية» كما يشير الربيعي صورت الفلسطينيين على أنهم شعب من الغرباء عاشوا وأقاموا في فلسطين المتخيلة، وأنهم كانو المتسللين الذين قدموا من جزيرة كريت (اليونان) واستولوا على أرض الميعاد اليهودي» فيما تقول التوراة في نصوص متفرقة إن «هؤلاء الفلستيين، عاشوا كجماعة وثنية متمردة ودخلوا في معارك وحروب طاحنة مع بني إسرائيل».

ما يبرزه الربيعي في أعماله هو توصيفه للشعب الذي اصطدم معه بنو إسرائيل وتسميتهم العبرية ها ـ فلستم أو الفلستيين نسبة إلى معبودهم الإله الفلس الذي كان يُرمز له بحجر مخروطي على شكل عضو ذكري رمزا لإله الخصب وكان معبده، المجاور لجبلي لبنان وسلمى من جبال بلاد طي، يمثل سرة الأرض.

مقاطع من سفر صموئيل الأول وإخباريات عربية كلاسيكية (الطبري، اليعقوبي، المسعودي) تردد الرواية التالية:

«والفلستيون أخذوا تابوت الرب ومضوا به من أوبن العيزار إلى شدد (وليس إلى أشدود الفلسطينية الساحلية)، ثم أخذ الفلستيون تابوت الرب وأدخلوه إلى بيت دجون...»

يقول الربيعي خاض بنو إسرائيل «أولى معاركهم وتمكنوا من الاستيلاء على تابوت العهد في موضع آخر بعينه يدعى أوبن العيزار، وفي الترجمة العربية (أبان) والصحيح (أوبن) كما هو واضح في التهجئة العبرية. وفي الواقع لا وجود لفلس أو أوبن أو أبان إلى جوار بعضها البعض في فلسطين التاريخية مهما فتشنا هناك، بينما نعلم من الهمداني في صفة جزيرة العرب والشعر الجاهلي كذلك، أن جبل أبان من أشهر جبال العرب وأقدمها وهو يقع بالفعل على مقربة مباشرة من أشهر بيوت العبادة الوثنية عند القبائل العربية «بيت الفلس»، وكان موضعا جبليا يتبع قبيلة طي اليمنية...» و في هذا الفضاء الجغرافي كانت القبائل الوثنية على موعد مع فجر ديانة عربية توحيدية. ويلفت الربيعي إلى أن «بيت العبادة اليمني كما يروي الأزرقي مؤرخ مكة يدعى (القليس) في صنعاء، وكلمة قليس تعني كنيس ـ بقلب النون لاما ونطق الكاف قافا وهذا هو الأصل في كلمة كنيست بإلحاق التاء اللاصقة.

البجاد ووشاح العبادة اليهودي

ارتبط جبل أبان بتراث المنطقة ليس في موقعه الجغرافي فحسب بل بتحولاته الجمالية التي منحه إياه فصل الشتاء يقول امرؤ القيس:

كأن أبانا في أفانين وَبله
كبير أناسٍ في بجاد مزمل

يشير الشاعر إلى شموخ الَجبل وجماله في لحظة هطول المطر والثلوج في أعلى قمته، ويستخدم الكلمة العبرية ـ العربية القديمة (بجاد) والتي ترد في التوراة كتوصيف لثياب يوسف وتعني الثوب المخطط الذي نجده حتى اليوم في «طقوس الصلاة اليهودية وبالطبع لا تعرف فلسطين التاريخ جبلا بمثل هذه المهابة وبمثل هذا الاسم» كما يقول الربيعي.

تصحيح تاريخ فلسطين

لقد حيرت جغرافية التوراة علماء إسرائيل قبل غيرهم لأنهم وقفوا عاجزين أمام إثبات مسرح الأحداث المذكورة فيها وعاثوا في أرض فلسطين دمارا تحت مسمى التنقيب الأثري لإثبات سطوتهم وسيطرتهم عليها. وفي هذا الإطار تبرز أهمية ما قاله هرتزوغ أحد علماء إسرائيل نهاية 1998، كما ينقله الربيعي، «إن علماء الآثار الذين عملوا بحماسة منذ بدايات القرن ـ الماضي ـ بحثا عن مواد تؤكد ما جاء في العهد القديم، لم يجدوا أي شيء. ولكن، كلما ظهر شيء ما على السطح، تأكد لنا بوضوع أن الكثير من قصص العهد القديم ليست صحيحة فمن عهد داوود وسليمان، لم نجد سوى بضع قطع من الفخار، لا تتطابق مع وصف التوراة. لقد وجدنا، بالفعل قطعا من عصور مختلفة، متأخرة وحديثة، وهو ما يعني أن المنطقة كانت مأهولة. بيد أن أيا من المكتشفات لا تبين أنها تنتمي إلى عصر داوود وسليمان» . يخلص فاضل الربيعي إلى أن «تحرير فلسطين لا يمكن أن يتحقق من دون تحرير صورتها التاريخية من الأوهام والمختلقات الأوروبية».

* كاتب وإعلامي سوري

فاضل الربيعي
القدس ليست أورشليم
مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين

فاضل الربيعي
فلسطين المتخيلة
أرض التوراة في اليمن القديم
المجلد الأول

عن مشروع «الميثاق الوطني للثقافة»

محمد بنيس

(استجابة لدعوة من الصديق عبد اللطيف اللعبي)

1.

■ لم تستطع الثقافة المغربية الحديثة أن تمتلك مرجعية وطنية تتجمع فيها وتتوحد. فهذه المرجعية الوطنية هي التي كانت ستسمح لها بتوضيح معنى الوضعية الاعتبارية للثقافة، ومكانتها النوعية في تحديث المجتمع وقيمه، وفعلها الخاص في ترسيخ الأسس الضرورية للديمقراطية وممارستها؛ كما كانت ستكفل وجود الاختلاف والحق فيه. ورغم أن أدباء وكتاباً وفنانين نجحوا في إنتاج أعمال وإنشاء مؤسسات تفتح طرق التحديث، أو نشر دراسات وتأملات في نقد تجاهل التفاعل بين الحداثة والديمقراطية من جهة، والثقافة من جهة ثانية، فإنهم لم يصلوا إلى أن تصبح للثقافة هذه الوضعية الاعتبارية المطلوبة في المجتمع. ثمة عوائق مختلفة حالت دون النظر إلى الثقافة المغربية الحديثة بما هي ضرورة فردية وجماعية، تاريخية ووطنية، ذاتية ومصيرية، في آن.

2.

عدم الوصول إلى ذلك هو بحد ذاته إخفاق تاريخي. وعلى النخبة المثقفة، التي تريد الإقدام على التفكير في»الميثاق الوطني للثقافة»، أن تبدأ بالإقرار بإخفاقها هذا. إنها الخطوة الأولى للنظر في مسألة «الميثاق». على أن الإقرار بالإخفاق وحده لا يكفي. إذ أن «الميثاق الوطني للثقافة» فكرة قبل كل شيء. ولا يمكن أن نتخيل البحث في الفكرة إلا إذا كنا واعين بالزمن الذي تعيش فيه الثقافة المغربية اليوم، وكنا في حالة اقتناع جماعي بأن ثمة أزمة تعاني منها الثقافة المغربية وبأن لهذه الأزمة انعكاسات مؤلمة على الحياة الجماعية والفردية للمغاربة.

3.

لتصور»الميثاق الوطني للثقافة» تسميات عديدة في لغات وثقافات، عبر مراحل من التاريخ الحديث. ويفيد التصور أن الثقافة مرتكز فكرة الحرية، التي هي أساس بناء المجتمعات الحديثة، وأن خصائص الثقافة تتطلب مقومات وحدوداً يجب الالتزام بها. من هنا يمكن للتصور أن يأخذ تسمية قابلة لاستيعاب معنى الثقافة الحديثة ومكانتها لدى الفرد كما لدى الجماعة.

4.

إن «الميثاق الوطني للثقافة» صيغة كفيلة بتوضيح أن الثقافة هي وحدها التي يمكن أن تعدنا بمجتمع مغربي حديث، ديمقراطي، لا يتخوف من المستقبل. لذا من الأفضل أن نتجنب، الآن، مناقشة نواقص التسمية، من حيث ملاءمتها أو عدمها للانطباق على الفعل الثقافي. وإذا كان «الميثاق الوطني للثقافة» تسمية يصلح اعتمادها، مرحلياً، في رصد مقومات وحدود الثقافة المغربية الحديثة، فهو، في الآن ذاته، أكثر من وثيقة يتم الاتفاق عليها. ليس «الميثاق» رصداً للحاجيات أو المطالب، التي يلمس كل واحد منا طابعها المستعجل ويمكنه أن يعبر عنها بصفته فرداً أو جماعة أو مؤسسة، ولا هو تحليل أو تفسير لواقع الثقافة المغربية، بل هو، في الأساس، مرجعية نظرية تتطلب التزاماً أخلاقياً وعملياً يحترمه ويصونه ويعمل به كل من المثقفين والمؤسسات الثقافية ومؤسسات الدولة والمجتمع. وهو يأتي لتعضيد الثقافة المغربية الحديثة، وتأكيد فاعليتها الطبيعية في أفق الاختيار الديمقراطي، وتوفير شروط تقاسمها بين أفراد المجتمع وحمايتها من الإتلاف والتبديد والعبث.

5.

وردت على خاطر بعض المثقفين المغاربة فكرة ميثاق وطني للثقافة، ولكنهم لم يعلنوا عنها في صيغة نداء مفتوح موجه، عبر الصحافة، إلى عموم المثقفين، مثلما فعل عبد اللطيف اللعبي في ندائه (مارس– أبريل 2010). ثمة كتابات بهذا الشأن، منها ما يعود إلى الثلاثينيات، على غرار ما قام به محمد داود وسعيد حجي؛ ومنها ما جسدته أعمال وكتابات تبقى في مقدمتها مؤلفات لعبد الله العروي. وقد كنت، من جانبي، أعلنت سنة 2003، عبر تصريحات في وسائل الإعلام، بمناسبة انعقاد الجمع العام لـ»بيت الشعر في المغرب»، عن ضرورة الانتقال إلى مرحلة وضع «الميثاق الوطني للثقافة». سبب ذلك التصريح هو شعوري بأن عناصر أصبحت متوفرة، منها: اتساع الممارسة الثقافية الحديثة، ارتفاع عدد المثقفين، وجود أعمال ثقافية ذات قيمة عالية، تفاعل مثقفين فيما بينهم بمختلف حساسياتهم وأعمالهم، انتباه فئات من المجتمع إلى حضور الثقافة المغربية الحديثة، ازدياد عناية أطراف خارجية بأعمال مغربية، الشروع في الكلام عن الحداثة والديمقراطية على المستوى الرسمي. آنذاك بدا لي أن الوقت موات لتدارك سلبيات المرحلة السابقة من ناحية؛ والاستعداد، من ناحية ثانية، لمقاومة زمن العولمة، الذي كانت ملامحه بدورها تتقدم شيئاً فشيئاً نحو الحياة الثقافية وقد أخذت تستبد بالحياة العامة.

6.

نحن، اليوم، في وضع ينفصل عن تلك اللحظة التي كنت أراها مواتية. والانفصال عن تلك المرحلة يؤدي بي إلى الاقتناع بأن ما كان آنذاك ممكناً لم يعد اليوم كذلك، على الأقل بما كان يحتمل أن يتحقق بسلاسة ومرونة. هكذا أجمل الأسباب:

أ/ تمزق في وسط النخبة الثقافية: وهو العامل الأول في انتفاء إمكانية اللقاء لإعداد «الميثاق الوطني للثقافة». لا أجد أي فائدة في الاعتقاد بأن هذا الميثاق يجب أن يتبع مسار «الميثاق الوطني للتعليم»، الذي خضع تصوره كما خضعت صياغته لميزان القوى السياسية والنقابية ومصالحها الظرفية. فالمثقفون هم الذين يجب أن يضعوا للثقافة ميثاقها الوطني، بما هو نسق نظري خلاق يرتبط بالصيرورة الثقافية والسياسية في المغرب، مثلما يرتبط بما يجري في العالم. على أن حدة قطع الصلة بين المثقفين تفاقمت، اليوم. فهم ينقسمون على أنفسهم، يتخلون عن التضامن فيما بينهم، وينفي الواحد منهم وجود الآخر.

ب/ سيادة المصالح الشخصية: هذه ظاهرة أصبحت مهيمنة في حياة النخبة الثقافية. غالباً ما بات المثقف يعطي الأولوية لرعاية مصالحه الشخصية في ممارسة العمل الثقافي. وهو ما لا يترك له فرصة الاستمرار في التشبث بما كان (أو بما يفترض أن) يصدر عنه من مواقف نقدية تجاه نفور المؤسسة الرسمية من الثقافة المغربية الحديثة ومجافاتها، أو الإفلات من إغراءات العهد لليبرالي وبشائر العولمة التي نشرت ثقافة المنفعة الشخصية السريعة من غير اكتراث بالقيم الأخلاقية وبالأفكار الإنسانية الكبرى. إن هذه الظاهرة تقف دون انتماء المثقف لفكرة الثقافة ودون تفضيل ما هو جماعي يسير في أفق وطني ديمقراطي. ومن ثم فهي عائق حقيقي أمام الاتفاق على اختيارات تتوحد فيها حركة الثقافة المغربية.

ت/ كثرة النزعات والمواقف: نشهد، منذ بداية الألفية الثالثة، تكاثر النزعات والمواقف في الحقل الثقافي، بدلا من نمو التعدد والاختلاف. والمقصود بالكثرة انعدام أي رابط بين هذه النزعات والمواقف. أي أننا نعيش حرب نزعات ومواقف لا تبادل الاعتراف بينها، وبالتالي نعيش حرب هويات لا تبادل الاعتراف بالهويات. فليس في الكثرة ما يؤدي إلى ترسيخ شيء ما مشترك، وفي مقدمته الرابط اللغوي. وانعدام هذا المشترك يفرق ويعدد الولاءات، فلا يساعد على حوار أو اتفاق.

ج/ تبعية الثقافي للسياسي: عانت الثقافة المغربية منذ الثلاثينيات، وبالأخص العربية منها، من تبعية الثقافي للسياسي. و، بعكس ما كان منتظراً، لم تعرف المعاناة، للأسف، إلا تصاعداً مع فترة الانتقال الديمقراطي ومع دخول أحزاب الكتلة الديمقراطية إلى الحكومة، في أواسط التسعينيات. إن العاملين على استدامة هذه التبعية يضاعفون مآسي إرغام غيرهم على الخضوع للزعامة وواحدية الحقيقة، كما يغذون بسلوكهم هذا عقلية عدم الاعتراف بالآخر وعدم اعتباره، على المستويين الفردي والجماعي، ولا يضمنون المساواة في التعامل مع الأفراد المثقفين على أساس ما ينتجون، أو احترام كرامتهم وإنسانيتهم. أي أن هذا النمط من السياسيين (وكثير من بينهم متحزبون) مجرد أدعياء الديمقراطية، لذلك فإنهم لا يتوانون عن زيادة حجم المظالم التي يتعرض لها مثقفون. ما لا يفهم هؤلاء السياسيون هو أن الثقافي يعيش في علاقة مع سواه (ومنه السياسي) لكن هذه العلاقة قائمة على الاستقلال والحرية والنقد. إنهم لا يتحملون جرعة واحدة من الدواء. فلا نفع معهم في النقاش أو الحجاج. ولا جدوى من تذكيرهم بتاريخ الثقافة المغربية الحديثة ولا بالمآل المأساوي الذي أدت إليه تبعية الثقافي للسياسي. العاملون على استدامة هذه التبعية سعداء بما يتوهمون، مغتبطون بسلطتهم وباستعدادهم لتدمير كل ما يمكن أن تنبثق عنه حركة ثقافية مغربية حرة.

ح/ ظهور وسطاء ثقافيين: ليس وجود وسطاء ثقافيين جديداً في المغرب الحديث. وما له اعتبار هو الظهور المتنامي لعدد من الوسطاء، الذين أصبحوا يلعبون دور المتكلم باسم الثقافة المغربية. تتألف فئة الوسطاء الثقافيين من مغاربة وأجانب. وهم يعتمدون وسائل وإمكانيات مادية تسهل تدخلهم المباشر في الشأن الثقافي. وتساعد العولمة الليبرالية، التي تخص بالأفضلية ثقافة الإعلام والاستهلاك، على توسيع قاعدة هؤلاء الوسطاء، كما تيسر لهم قوة التأثير في الاختيار والحكم والتوجيه. وهي جميعها تمنع المثقفين من حرية التعامل مع الوضع الثقافي وتجبرهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على تبني اختيارات تقلص من إمكانية التواصل بينهم.

خ/ ندرة المؤسسات الثقافية الحرة: أصبح كل متتبع نقدي للأوضاع الثقافية في المغرب يدرك أن المؤسسات الثقافية الحرة تظل نادرة. وترجع ندرتها إلى تحكم السياسي في أغلب المؤسسات الثقافية الوطنية وإخضاعها لمشيئته. وواضح أن مثقفي أحزاب الكتلة الديمقراطية هم أول من يستولون على هذه المؤسسات الثقافية ويبعدون سواهم. إن المؤسسات الثقافية الحرة هي التي يمكن للمثقفين أن يعبروا فيها، ومن خلالها، عن وجهات نظرهم الجماعية في القضايا التي تعنيهم، باستقلال عن كل ضغط (أو امتياز) خارجي، وأن يراقبوا أوضاع الثقافة والمثقفين ويتدخلوا، في الوقت المناسب. بالإضافة إلى أنها التي يصبح الحوار فيها ممكناً بين المثقفين حول «الميثاق الوطني للثقافة» وصياغته والعمل على إقراره.

د/ تهميش العربية ومحاكمتها: من العوامل السلبية في الحياة الثقافية ما تتعرض له العربية من تهميش ومحاكمة من طرف جهات مختلفة. وهذه وضعية لافتة للأنظار. حتى العجب يفقد سره. تهميش العربية ومحاكمتها يتكاثران عن طيب خاطر. والجهات التي تصدر الأحكام تتمتع بفضاءات شاسعة من حيث الإمكانيات والنفوذ. ولا يستسيغ أي ملاحظ، يصدر عن وجهة نظر نقدية، أن يرى هذا المشهد بما هو مجرد تعبير عن الرأي. من ثم فإن ما يحدثه من انقسام في الوسط الثقافي لا سبيل إلى التملص منه.

ر/ بين سيادة الحقل الديني وصرامته: لم يغب الدين يوماً عن المغرب، لكن مظهر الإسلام الأصولي عبّر عن نفسه في الثمانينيات مع فترة عودة الدين إلى العالم الغربي، بعد إخفاق المشروع اليساري. هذا الإسلام الأصولي اقتحم المغرب على إثر إخفاق كل من فكرة العروبة والتجربة الاشتراكية في العالم العربي، وعلى إثر انتصار الثورة الإيرانية خصوصاً، ونمو حركات أصولية وجهادية في الجزائر والسعودية وأفغانستان والعراق وفلسطين. إنه إسلام يتجذر تأثيره أكثر فأكثر، لا لأننا نستحضر أحداث 16 ماي 2003، بل لأن الإسلاموية تطغى على التوجه العام للمجتمع، مما يعني انتصارها عبر مختلف فئاته، وفي مقدمتها فئة المثقفين. لقد اتسع التعبير الصريح بمختلف الرموز عن النزعة الإسلاموية في المجتمع والثقافة. وهو تعبير بقدر ما يريح الدولة بقدر ما يحثها على استعمال الصرامة في الانضباط للمذهب السني المالكي. لذلك فهي، من ناحية، تنوع تنشيط الحقل الديني وتبرزه بما تراه ملائماً لسياستها الدينية؛ وتراقب، من ناحية أخرى، الانضباط للواحدية في المذهب وفي قراءة القرآن. وتدل حالة الحقل الديني على أن حظوظ إقبال المغاربة على الثقافة الحديثة في تضاؤل، وأن ما يعني الدولة هو أسبقية نشر قراءتها الظرفية للدين على العناية بالثقافة المغربية الحديثة.

7.

كل هذه عوامل تعمقت حدتها في السنوات الأخيرة. وهي تؤدي إلى إفراغ الثقافة من معناها، مثلما هي تحرض على قطع الصلة بين المثقفين. في ضوء هذه العوامل الجوهرية، أتساءل: كيف يمكن الوصول إلى وضع «الميثاق الوطني للثقافة»؟ ومع من يمكن الجلوس والحوار؟ إن السؤالين يفيدان أننا يصعب أن نفكر في وضع «الميثاق» دونما اعتبار الحد الأدنى الذي يجب أن يتوفر حتى ننجح في إعداد «الميثاق».

8.

لكن، ألا يخفي هذان السؤالان أنني أختار مقام الندب على الثقافة المغربية الحديثة والإعلان عن نهايتها، كما أعلن آخرون عن نهايات أخرى؟ الجواب هو النفي. فأنا لا أرى نهاية للثقافة المغربية الحديثة، بدليل أن هناك مغرباً ثقافياً حيوياً أعمل فيه ومن أجله ولا أتخلى عنه؛ ثم إن الزمن، وهو الأهم، لا ينتهي. على أن القول بوجود مغرب ثقافي حيوي وبلانهائية الزمن لا يكفي بدوره. نحن، حقاً، في وضعية صعبة جداً، نعجز فيها عن الوصول إلى وضع «الميثاق الوطني للثقافة» بالشروط التي يجب أن تتوفر فيه، بل لم نعد نعرف فيها حتى عند أي حد يقف عجزنا عن تخيل المستقبل. ولكن علينا، بدلا من اليأس والتشاؤم، أن نستعجل القيام بما يلي:

– أولا، أن نبقى أوفياء للدعوة إلى «الميثاق الوطني للثقافة».

– ثانيا، أن نتجرأ على إبدال طريقتنا في تأمل الواقع وتفسيره.

– ثالثا، أن نعلن تضامننا الصريح مع المثقفين المظلومين، ونشجع المساواة في التعامل مع المثقفين وفي حفظ كرامتهم وإنسانيتهم، ونعمل، تبعاً لوصية عبد الحميد الكاتب، على أن تعود العلاقة بين المثقفين المقاومين إلى الأخوة والمودة والتسامح، وأن نشجع على التصالح والتضامن فيما بينهم والاعتراف ببعضهم البعض.

9.

هذه خطوات للمواجهة والمقاومة. وهي تعني أننا، بالاتفاق عليها (وعلى غيرها) والعمل بها، نقرر الانخراط في تهييء شروط اللقاء من أجل «الميثاق الوطني للثقافة»، وأننا لا نقبل أن نكون جامدين، مستسلمين، متوارين عن أنفسنا وعن غيرنا. لكني سأكون كاذباً لو تكهنت بما يلزم من الوقت.

وما أومن به، الآن، على المستوى الشخصي، هو المقاومة بالكتابة وفي الكتابة، والعمل مع أصدقاء أوفياء لفكرة التحديث الثقافي في المغرب. نعم، إنها مقاومة تأكل الجسد، فيما لا مفر من الصبر. ولكني أرى مسالك المقاومة تركض إلى هناك، حيث الذات والكتابة والحرية.

المحمدية، في 12 سبتمبر 2010.

دولةُ الشّعْبِ الافتراضِي



نزار شقرون *

الفايسبُوكيّونْ
شعبٌ افتراضيٌّ
خُلقَ منْ نَقْرِ الكَلمَاتْ
يَشْهَدُ أنّ العَالَمَ أَكْبَرْ
والجُغْرَافيَا مُختَزَلَةٌ في شاشَة
وَفي كلّ نقْرَة
تُولَدُ أسْماءٌ
تطفُّ علَى بابكَ
تسَألكَ أنْ تَعْبُرَ بحْرَ الرّغَبَاتْ.

2

الفايسْبُوكيّونَ
ملْحُ الأرْض هاجَرَ معَ البَجَعَاتْ
يَحْملونَ السِّبَاخَ
في حَناجرهِمْ
وَفي عيُونهمْ حلاَوةُ الوَميضْ
يَتَنَاسَلونَ خَارجَ غُرَف النّوْم
أولئك الذينَ تمنّوا عناَقَ الشّوَارِعْ
أولئك الذينَ في السّاحَاتِ العامّة
تمنّوا حربَ القُبُلاتْ.

3

مَاتَ مَنْ لمْ يُهَاجِرْ
إلَى طَعْم آخَرَ للْحيَاة
مَاتَتْ هذِه اللّغةُ الرّجيمَة
إنْ خَشيَتْ لَعْنَةَ القَواميس
ولمْ تُجَرّبْ لَسْعَ الحلْمَةِ فَي الظّلُمَاتْ
أماتَت اليَقْظَةُ
كلَّ حلْم طريٍّ
يسيرُ بأَنامله عَلَى جَمْر
لِيَسْرقَ نَارَ السّماوات.

4

الفايسْبُوكيُّونَ
عُمّالُ مَنَاجمِ الشّهَواتْ
يُنقّبُونَ عنْ مَعْدَنٍ يلْتَمعُ في السّرْ
ليْلُهمْ إبْحارٌ في مَمْنُوعِ الصّباحاتْ
يَكرَهُونَ الصّبَاحَ القَديَمْ
يُحرّضُونَ النُّجُومَ على الشّمْس
وَلَيْسَ لَهُمْ تَوْقيتٌ للنّوْم
عُمّالٌ عُراةٌ
إلاّ منْ شَوْقِ الميّتِ إلَى الحَيَاة.

5

أصَابِعُهُمْ معاوِلْ
وعُيُونُهمْ معلّقَةٌ على ما وَراء الكَلماتْ
آذانُهمْ مُعطّلةٌ في هذا الشّعبِ خِصْلَةُ الثّورةْ
ضدَّ تاريخ الإنْصَاتْ
يُجرّبونَ الكتَابَةَ كمَا يَشَاؤونَ
يُخرّبُونَ قَبْرَ ابْنَ جنّي دُونَ أنْ يَعْرفُوهْ
ويَسيرُونَ دونَ إضْمَار
في جنَازَةِ أحاديثِ الرّوَاة.

6

تبّا للأبْجديّة
ذاكَ مفْتَاحُ عرْبَدَةِ النّزَواتْ
أمْضيْنَا قُرونًا نَحْفظُ الأخْطاءَ في المَتاحفْ
لاَ نُؤْمنُ بأنّ الأقمَارَ مُظْلمةٌ
ولاَ نَأْمَنُ لغيْرِ منْ يُشْبهُنَا
وصَارتْ خَلاَيَانَا خلاَيَاهُمْ
أولئك الذينَ سمّرُوا لسَانَنَا في المّعلّقَاتْ
تبّا لَنَا نُلاَعبُ النّسَاءَ
ولاَ نُجيدُ مُواقَعَةَ اللّغَاتْ.

7

الفايسبوكيّونَ
مُتّهَمُونَ بعُقوق الأمْ
موْعُودُونَ بالجَحيم تحْتَ الأقْدَامْ
وهُمْ ثابتونَ على كراسيهمْ لاَ يأبَهونْ
مَاذَا لَوْ تَحرّكَ هذا الشّعَبُ العفْويُّ
ماذَا لَوْ نبَتتْ في الأرْصفَة عُروقُ الجُنُونْ
ألاَ يَحْتاجُ الوجْهُ إلى مِرْآةَ
لقلْب العيْنِ إلى الدّاخلْ
أمْ يَحْتَاجُ القِنَاعُ إلى دُهونْ؟

8

في الغرْفَة المُغْلَقة
يُحمّضُ الفَايسبوكيُّ
صُورتَهُ كيْفمَا يَشْتَهي
يتَجمّلُ أو ينْثرُ الظّنُونْ
لكنّهُ حالمٌ يَسْتَعيدُ عبَثَ
الأطْفالْ
يَخْتَبرُ الحُرّيةَ دونَ قُفّازاتْ
يُراوِدُهاَ بوُضُوحِ النيّةِ في
جمَاعهَا
لاَ يُريدُها عاريَةً
شَغفُهُ الأصْليُّ بتمنُّعِهَا
يُغريه بتقْشيرهَا
بِأظَافِرِ الغيلاَنْ.

9

لكنْ هيْهاتْ
سيُعْلَنُ في غرفَة العمليّاتْ
بأنَّ النّيّةَ العربيّةَ رَهْنَ الآلة
وهذا النّبضُ مجْبُولٌ على المُعْجِزَاتْ

10

لذا مُباحٌ
هذا الشّوْقُ الافْتراضيُّ
ما دَامَ لاَ يعكّرُ هدُوءَ السّجلاّتْ
مُباحٌ تَقطيرُ أزْهارِ النّهديْنِ
ما دُمْتَ أمامَ الحَاسُوبِ
مَمْنُوعًا منَ الرّائحَة
ممْنُوعًا منْ لَحْميَّةِ الكائنَاتْ
مُباحٌ إعلاَنُ الدّهْشَة
منْ حَليبِ الأمّ المغْشُوش بالمَاءْ
ما دُمْتَ لأبيكَ تَحْفَظُ الآيَاتْ.

11

الفايسبُوكيّونْ
يُسرُّونَ إلى حبيباتهِمْ بخطّةِ الحُريّة
يَتجاهَلُونَ الرّقيبَ الذِي
دَمُهُ منْ دَمهِمْ
وَكُرَيّاتُهُ مَحْقُونَةٌ بالدّم الفاسدْ
يَسْتبْسلُونَ في تَحْريرِ مُتْعَةَ التّطاوُلْ
عَلى حَميدة وحَميد وحامدُونْ
وَيُشْهِرُونَ مَشاهدَ إخْراجِ الرّهائنْ
منْ صَمْتِ الغريزة.

12

الفايسبوكيّون
يقلّبونَ حَيْرَةَ الفُوتوغرافيّ
كيْفَ يُحمّضُ صورةَ حيْضِ الواقعْ
مثْلَمَا تحْتَارُ المناضلةُ السيَاسيّة
في زنْزانَتهَا البَارِدة
كيْفَ تُقْنعُ السّجّانَ
بإملاَءَاتِ العادَة الشّهريّة.

2010/9/4

* شاعر من تونس

«ناج من المقصلة»:

كتاب يروي معاناة المجاهدين الجزائريين وهم في الانتظار في أروقة الموت

الطيب ولد العروسي *

■ صدر في الجزائر عن منشورات «الشركة الوطنية للنشر والإشهار» كتاب جديد باللغة الفرنسية تحت عنوان «ناج من المقصلة» لمؤلفه مصطفى بودينة، يقع في 160 صفحة، ويحتوي على عشرة فصول مصحوبة بأربع قوائم، الأولى بأسماء المجاهدين الذين قضوا حتفهم بواسطة المقصلة، في سجن سركاجي في الجزائر، والثانية بأسماء المحكوم عليهم بالإعدام والذين تم قتلهم من سنة 1954 إلى سنة 1962 في السجن المدني لمدينة وهران، والقائمة الثالثة تحتوي على أسماء الذين نفذ فيهم الحكم بالإعدام في السجن العسكري في القصبة في قسنطينة، أما الرابعة فهي بأسماء المحكوم عليهم بالإعدام في ليون، وقائمة بأسماء الفدائيين في سجن «لا سنتي» في باريس، وأخرى في سجن «ديجون». والجدير بالذكر أن المناضل الجزائري علي هارون هو الذي قام بتقديم هذا الكتاب، وهو معروف بكتابه حول ثورة التحرير الجزائرية في فرنسا.

يصنف كتاب «ناج من المقصلة» ضمن الشهادات والسير والمذكرات الصادرة في الجزائر، أو في فرنسا، أو في دول أخرى من العالم العربي والغربي، وهي في أغلبها تروي سنوات النضال والكفاح الجزائري من أجل إعادة السيادة الوطنية، بقلم مجاهدين ساهموا في هذه الثورة، وفي هذا الإطار نحن أمام شهادة مجاهد، ولد في الشرق الجزائري في 18 نيسان (أبريل سنة) 1939، في «تكسانة» بالقرب من مدينة جيجل. تربى في عائلة جد فقيرة، وبدأ العمل وهو بعد طفلا في بلدته ثم انتقل إلى مدينة الجزائر العاصمة، حيث تردد على مهن مختلفة، والتقى بأحد المناضلين حينما كان يعمل في مطعم ببلكور، حدثه عن الثورة، وعن الرسالة الكبرى التي تنتظر كل جزائري وجزائرية، وما فتئ الفتى أن اقتنع بالفكرة وراح إما يوزع المناشير أو يحمل الرسائل، أو الأمانات ، معتبرا ذلك واجبا وطنيا مقدسا. هكذا يدخل ضمن صفوف الثوار وهو في ريعان شبابه، ثم يلتحق بفرنسا، ويستقر في مدينة «سانت إتيان» حيث واصل العمل فيها من أجل إعانة أهله ومواصلة النضال، فقام بمجموعة عمليات تخريب وتدمير وشغب ليلفت انتباه العالم إلى ما تقوم به فرنسا من مجازر في الجزائر وكان ذلك ما بين سنتي 1956 و1958..

يؤكد السيد مصطفى بودينة من أن هذه العمليات لم تكن موجهة ضد الشعب الفرنسي، فهو ككل الشعوب يكره الحروب، ويحب السلام، لكنها موجهة ضد المستعمرين وأعوانهم، وبالتالي تعميم الوعي على أكبر شريحة اجتماعية إنسانية في العالم ليعرفوا الواقع المحرق الذي كان يعاني منه الجزائريون ومعاناتهم مدة 132 سنة من الغطرسة الاستعمارية، فالكاتب يروي حكايات مؤلمة عاشها في السجن وهو في دهاليز الموت أو ينتظر دوره لكي يتم إعدامه. ويصف معاناته ورفاقه وهم ينتظرون أدوارهم أيضا، وهي تعتبر فصول رائعة من الشجاعة والإقدام التي يتميز بها هؤلاء الفدائيون، الذين دخلوا ساحات المعركة عن قناعة، وكانوا وظلوا مستعدين للتضحية بكل ما يملكون، إذ يقول واصفا محاكمته هو ورفاقه من قبل قاضي المحكمة العسكرية: «عندما تم القبض علينا، كنا ستة عشر فدائيا، وبعد محاكمة سريعة وغير عادلة، حكم علينا بالسجن فرموا كل خمسة منا في زنزانة. رفضنا هذا الحكم الجائر، وطلبنا أن يكون القاضي معتمدا من طرف الحكومة الجزائرية المؤقتة». ثم يواصل قائلاً: «لكن رغم ذلك واصلوا حكمهم الجائر وعندما نطقوا به، رحنا كصوت واحد ننشد (من جبالنا طلع صوت الأحرار ينادينا للاستقلال، متحدّين بذلك جلادينا)». وهكذا وبعد المحاكمة راح يتكلم عن عزلتهم حيث لم يكن يسمح لهم بالالتقاء إلا عدة دقائق في اليوم، وكان السجان ينتظر مرور الجلاد أثناء الليل ليعدم الفدائيين. يصف دوامة السجن، وتحدي السجين

أسرى جزائريون

لهذه الدوامة، إذ يقول «كنت عندما أدخل إلى زنزانتي أروح أتأمل سقفها الذي يبدو لي وكأنه يتحرك، أو يضايقني، فأدخن سيجارة تلوى الأخرى، حتى أقضي على أربع علب أحيانا، وأمامي دائما إناء من الماء أستعمله للوضوء، وأتركه جانبا في حالة ما إذا أتى دوري، أتوضأ وأقرأ القرآن بصوت عال ثم أصلي قبل أن يتم إعدامي، وذات ليلة سمعت الجلادين وهم يفتحون الأبواب فهيأت نفسي، وتأملت السقف فإذ هو عاد لم يتحرك من مكانه، لكن الانتظار أوحى لي بأشياء كثيرة».

كما راح ذات يوم يقرأ أسماء من مروا هنا، لأنهم نحتوها «فوجدت أن الرئيس الحبيب بورقيبة كان قد مر على هذه الزنزانة». هكذا يتعايش المسجونون في كل لحظة مع الموت، وأي موت، مرور رأس الفدائي تحت المقصلة، إذ يثبت الشهادة التالية التي تبين التحدي الكبير والإيمان العميق لهؤلاء المجاهدين حينما يقول «عندما تم الحكم بالإعدام على الفدائيين كل من ميلود بوغندورة ومخلوف، وعندما تم إعدام مخلوف – طلب بوغندورة من جلاده، مهلة وراح يقبل جمجمة رفيقه وسجد أمامها ويضمها إلى صدره، ونادى الجلاد ليأمره فيما بعد بالقيام (بعمله الذي يأكل منه قوته) ». فالمحكوم عليهم بالإعدام في حالة هؤلاء الفدائيين يروون فصولا من التحدي ومن الاتحاد، إذ كان كلما يأتي دور احد منهم والذهاب به إلى المقصلة يرفعون أصواتهم بالنشيد الوطني، كما يؤكد عدم احترام القانون الفرنسي قتل شباب في عمر الشهيد لخليفي الذي كان يبلغ من العمر 20 سنة فقط ـ «إذ كنا نفكر بأنه آخر واحد يعدم» والذي «انخدع من الإنسانية المزعومة المفترضة لدى الرئيس الفرنسي (دي غول) لأنه على الرغم من البرقيات التي بعث بها ملك المغرب محمد الخامس والرئيس السوفييتي خروتشوف وملكة انكلترا، أصرّ الجنرال (دي غول) على تنفيذ حكم الإعدام».

يقول السيد بودينة «عندما سيق المجاهد عبد الرحمن خليفة إلى المقصلة، كان يقول وبصوت عال: الله أكبر، الله أكبر» ثم واصل قائلا (قولوا للشباب الجزائري أن يأخذ لي الثأر من الفرنسيين، وأن يحبوا الجزائر بشكل عميق) ثم اتجه إلى العقيد المكلف بالإعدام، قائلا له بكثير من السخرية والإهانة: (قم بعملك بسرعة، لي موعد الآن مع الشهداء في الجنة). أما أحمد فغلول، وهو شهيد آخر أعدموه، فقال لقاتله: (أقتلني فهذه مهنتك التي تعيش منها)».

مع توالي الأيام والأشهر نظم السجناء أنفسهم وقاموا بثلاثة إضرابات عن الطعام (تراوحت بين أسبوعين وأربعة أسابيع) تكلمت عنها الصحافة العالمية والفرنسية، كما حركت المحامين لإعادة الحديث عن ملف المحكوم عليم بالإعدام ، مما دفع بجلاديهم (إدارة السجن) إلى إعطائهم قاعة للقراءة والمطالعة، تحولت هذه القاعة إلى مدرسة، بحيث كان المتعلمون يلقنون الذين لا يحسنون القراءة والكتابة، وكان السيد مصطفى يقوم بدور المعلم، واندفع الكل يحلم – رغم الواقع المر – بتحسين مستواه وبالقضاء على الجهل، كما كان البعض منهم يمر بفترات تردد ومرارة، لأنهم كانوا يصابون بنوع من الإحباط، لأنهم كانوا مقبلين على المقصلة، إلا أن هذه الإضرابات أعطت نتائجها بالنسبة لتحسين الأكل، وبوصول وكتابة الرسائل، والجرائد والمجلات، لأنهم كانوا من قبل منقطعين تماما عن العالم. «إنها طريقة عزل مدروسة لكي لا يعرف السجناء ماذا يجري في البلد من تحديات وموت وانتشار ثورة التحرير في كل القرى والمدن».

جرت هذه الأحداث التي يرويها السيد مصطفى بودينة في أروقة الموت في سجن فورت مانتليك Fort Montluc «في مدينة ليون، حيث قضى الكاتب عدة سنوات ، أي ما بين 1958 و1962، لكنه قضى قبل ذلك ثمانية أشهر من سنة 1958 في مدينة سانت إتيان قبل أن ينقل إلى ليون، حيث حكم عليه بالإعدام مرتين، وعندما أعلن عن إيقاف الحرب في 11 ايار (مايو) 1962 تم تحريره هو والمجموعة الناجية من الموت لينظموا في دفعات ويلتحقوا بالجزائر، كل إلى مسقط رأسه أو المدينة التي كانت موجودة فيها أسرته.

تقلد السيد مصطفى بودينة بعد الاستقلال عدة مناصب، كمسؤول نقابي ثم محافظ في حزب جبهة التحرير الوطني، ويعمل حاليا عضوا في مجلس الشيوخ، ورئيسا لـ «الجمعية الوطنية للمحكوم عليهم بالإعدام»، هذه الجمعية التي أقرت أن تعمل من يوم 19 حزيران (يونيو) يوما وطنيا للمحكوم عليهم بالإعدام، لأن هذا اليوم يتزامن مع تنفيذ أول حكم إعدام في الشهيدين أحمد زبانة وفرج، وهو يعتبر أنها مساهمة لإعادة الذاكرة للشعب الجزائري من خلال الاحتفاء بأيام مثل هذه ويشجع كل المجاهدين على كتابة ذكرياتهم لتكون «نبراسا للأجيال التي أتت بعدهم». كما يرى أن عدد المحكومين بالإعدام والذين لا يزالون على قيد الحياة لا يتجاوز الألف شخص. ويقدر المؤلف مجموع الذين أعدموا بالمقصلة خلال حرب التحرير بـ 200 شهيد .

ويعتبر المؤلف كتابه هذا شهادة بل مساهمة في كتابة تاريخ الجزائر «وفي الوقت نفسه أتحدث عن رفاقي وما قاموا به إلى الأجيال القادمة». سرد لنا المؤلف الأحداث بشكل ينقل القارئ إلى الجو الذي كان سائدا في دهاليز السجن، ويوميات السجناء المحكوم عليهم بالإعدام وهم ينتظرون الموت من أجل الدفاع عن كرامتهم وشرف بلدهم.

---

* كاتب من الجزائر يقيم في باريس

تداعيات

إنهم يتظاهرون بالموت!

مهند الخطيب *

■ لا تبكوا هكذا ..
توقفوا أرجوكم
فالشعراء لا يموتون،
... انهم يتظاهرون بالموت
ماذا أقولُ لك وَأنتَ كيانٌ معنويٌ رُفعَت به خَيمَةَ اللاجئ الفِلسطيني حتى صارت أيقونةً مُقدسةً.. وَجعاً غائراً في رُخام الأَنا؟
ماذا تقول لكَ العصافيرُ التي اعتادت أن تشرَبَ القَهوةَ على شرفتِكَ قبل أن تُمارسَ طُقوسَ خلودها الشِّعري في الجليل؟
ماذا أقولُ لَلقهوة والملح والخبز والأم؟
ماذا أقولُ للجيتارَة، الزنابِق، الخَنادق.. للخيل والقُبَرَة؟
ماذا أقول لِريتا وأحمد العَرَبي ويوسُفَ النبيَ؟
كيفَ تمشطُ الفَلسفة الفَتيةُ شعرَها دون مِشطها الدَرويشي؟
سيدي، وأحد أهم أسياد الكَلمة الفكرة... محمود درويش :
أن يفقدَ المرءُ ترابا، مَكانا، بَيتا، حَيزا، أَرضا، وطناً، سَمِّه ما شئت، يأتي اليومُ الذي فيه سوفَ يُستَرَد، لكن أن نفقد الصوتَ، الفكرَةَ، الكلمةَ، المَوقفَ، الوَحيَ، العزةَ، الضوءَ، الشُعلة، تراميم الصلاة، القبلة، فهذا ما لا طاقة لنا به وهو الَذي حقت عليه تسمية نكبة، لأن الطَامةَ الكبرى أن تُكسر مِن الداخل، أن يبدأ انحسارُ البَحر عَن شواطئ انسانيتك مُخلفا أصدافاً خرساء، أن تشعُرَ أنَكَ ضعيفٌ مستفردٌ به وأنَ الخوف قد بدأ رقصةً بربريةً استفزازيةً حولَ نيران كينونة هويتك الفلسطينيَة، وهذا ما نخشاهُ محاولينَ فك طلاسمه، حيثُ أنَ الموت ومَن خلال لعبة النرد استطاع الفوز على معظم اللاعبينَ المؤثرين في حياتَنا الثقافَية والانسانيةِ والإبداعية مُشكلا بفوزه حالةً تساؤليةً حولَ حقيقةَ الذَي مات فعلا؟ هم، في انتقالهم من هذه الحياة إلى الميتافيزيق أم نَحن؟ حين انقطع بغيابهم حبلنا الصُرّي، الشعر الذي كنا به نحيا ونحلم، نفخر ونرسم بريشته هويتنا ونحدد من خلاله مواقفنا وثوابتنا وبه نحُجّ الى مستقبلٍ حرٍ يقودنا الى تحرير ارادتنا التي ستؤدي الى تحرير أرضنا.
فكم نحنُ في حاجة ماسة إلى صوتكَ يَرُشّ على غيماتنا فضة توقظُ المطرَ، فيصعد، وكم نحن بحاجة الى فكرك يمسحُ على ليل جباهنا الإرادة العزة القوة.. والصباح، الى موسيقى شعرك تُدغدغُ أقدامَ قمرٍ رضيعٍ في حضن قريتنا وتطرزُ أثوابَ عروبتنا.. فلسفة للرياح.

محمود درويش
وكما كتبتَ قصة شعبنا وَضميرنا الإنساني بأقلامِ الآلهة سنكتبك بأقلام وجداننا، شكرا
وكما قام المتنبي بتلخيص الشعر العربي القديم، اختزلت لنا شعرنا العربي الحديث، شكرا
وكما أعدتَ اليّ الثقة بنفسي حين أعدتَ اليّ الثقةَ باللغة، حين أعدت اليّ اللغة، شكرا
وكما أعدتَ العلاقة بالمُثنى باعتبار أنها علاقةُ انكسار الأنا لنصفين، لتضعني بشعرك في مواجهة معي، لا يصفع أحدنا الاخر، في لعبة باتت تعرف بجلدِ الذات، بل لنوقظ الصباحَ معا نرسُمَ ملامح يومنا، نقفَ صفا واحداً أمام مرآة وعيناً لانرى إلا حالة موحدةً في فلسَفة حتى الألم، لنجعلَ منه سلاحنا ووقودَ صيرورتنا،... شكراً
اتدري يا عزيزي؟ لا أحدَ يكفيك حقك إلاك
واذا كان الله حظ النّبي
واذا كان الوحيُ حظ المهارةِ اذ تَجتهد
فأنتَ حظُ المفكر به
واسمح لي أن اقولَ لكَ بأنكَ حظُ الكنعانيين، ففي شعرك تُمكن قراءة قصة الشعب الفلسطيني وفكره ومشاعره ومُعاناته وهو في الوقت ذاته شكل حالة الرُقي من المأساة الفلسطينية الى الوضع الانساني الأرحب وعلى ذلك أجزم بأنكَ حظُ الرَحابة.. بأنك حظُ الأفُق.
شكراً، نُحبك.. يقولها لك من أتحتَ لهم فُرصة العيش والتأمل وبناءَ الروح والذات والكبرياء والانتماء، في بيوت شعرك تعويضا عن بيوتهم المغتصبة، وأقول مَعهم بأن كلماتي هذه لا يُمكن في أي حال من الاحوال أن تكون تأبينا لك عزيزي محمود، لأنك ببساطة شاعر بقامة وطن، والوطن لا يؤبَّن.

---

* كاتب من فلسطين يقيم في بريطانيا

فضاءات ثقافية

نشاطات ثقافية لبنانية

بيروت ـ «القدس العربي»

ـ من مازن معروف:

ـ تنظم جمعية «سوليدير» بالتعاون مع غاليري تجليات ـ دمشق، معرضا مشتركا للفنان التشكيلي سبحان آدم والنحات جميل قاشا وذلك في غاليري «بيس يونيك» في الصيفي. يستمر المعرض حتى الثلاثين من شهر ايلول (سبتمبر) 2010 الجاري.

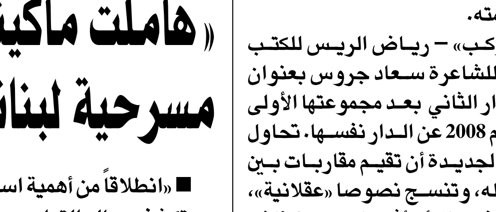
ـ تستضيف غاليري «رانينغ هورس» ستة فنانين تشكيليين شباب، مقيمين في طهران، فتعرض لهم مجموعة من الاعمال المشغولة بالحبر الصيني، الاكواريل، الاكريليك، الكولاج، في تيمات تحاكي الجنس وتقدم ابعادا عن فكرة الجنسانية والإيروتيك واسقاطاتهما على الفرد في المجتمع الايراني. يستمر المعرض حتى الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) القادم.

ـ ينظم «معهد غوته» في بيروت، بالتعاون مع الجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الامريكية للتكنولوجيا (A.U.T) ومركز الصفدي الثقافي في طرابلس، حفلا موسيقيا لمغنية الجاز والمؤلفة الموسيقية ماري سفريان وفرقتها. فيقدم الرباعي، حفلة أولى في قاعة الـ «اسمبلي هول» في الجامعة الامريكية في بيروت يوم الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) الجاري، يليها حفل في اليوم التالي في جامعة إيه. يو.تي ـ حالات، قبل ان تختتم الجولة في مركز الصفدي الثقافي في طرابلس يوم الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) الجاري.

ـ النسخة السادسة من مهرجان «أيام بيروت السينمائية» تنطلق في السادس عشر من ايلول (سبتمبر) الجاري لتستمر حتى الخامس والعشرين من الشهر نفسه، بتنظيم من جمعية بيروت دي سي. يفتتح المهرجان بعرض فيلم «كل يوم عيد» للمخرجة ديمة الحر، ويتبع ذلك بعرض افلام لمخرجين آخرين كغسان سلهب، محمد سويد، محمد اتاسي، بلال يوسف، ميشال خليفة، عبد الكريم بهلول، فاروق بلوفة، تهاني راشد، كمال الجعفري، محمد ملص، هشام بن عمار، رائد أندوني، حكيم بلابس، مرزاق علوش، عبداللطيف بن عمار، محمد الدراجي، طارق تغيا، ماهر أبي سمرا، حاتم علي، رشيد مشراوي، ونجوى نجار. كما يعرض يوم الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر) الجاري الساعة السابعة مساء، فيلم «كارلوس» للمخرج أوليفييه أساياس ويحكي تفاصيل حياة المناضل كارلوس الذي انضم في فترة ما إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قبل أن يطارده الانتربول فيعتقل ويسجن في فرنسا في انتظار محاكمته.

ـ صدرت عن «دار الكوكب» – رياض الريس للكتب والنشر، مجموعة جديدة للشاعرة سعاد جروس بعنوان «هكذا احبه». وهو الاصدار الثاني بعد مجموعتها الأولى «رمان» التي صدرت عام 2008 عن الدار نفسها. تحاول الشاعرة في مجموعتها الجديدة أن تقيم مقاربات بين الواقع ورؤاها الشخصية له، وتنسج نصوصا «عقلانية»، تبدو وكأنها مفرغة من الدفء، إلا أن أثرها يمتد بطيئا في القارئ حتى ليكاد يتجدد في كل قراءة.

ـ «فتنة جدة» هو عنوان الرواية الصادرة حديثا عن «دار الكوكب» – رياض الريس للكتب والنشر للمؤلف مقبول موسى العلوي. والكاتب يعمل كمدرس تربية فنية وله قصص قصيرة ومقالات منشورة في بعض الصحف المحلية. أما الرواية فتحكي عن جدة في القرن التاسع عشر، حيث كانت متجاذبة بين العثمانيين والانكليز، ومحكومة بالتوترات والتراجيديات والدم. وتقدم صورة بعيدة عن القراء حول مدينة اكتسبت اهمية دينية وتاريخية ورمزية، وغابت عن التاريخ لفترات بسبب الاهتمام الاعلامي بأوروبا وتقلباتها والتغيرات السياسية فيها آنذاك.



«هاملت ماكينة» مسرحية لبنانية

■ «انطلاقاً من أهمية استكمال البحث على النص الذي يستكشف معالم التراجيديا المعاصرة والتي تهمس لنا من تحت أنقاض الآيديولوجيات التي ورثناها عبثاً ونراها تنخر في مخ عظامنا، يأتي) هاملت ماكينة(في العام 2010 بأسلوب مختلف ليسائل من جديد قيمة موقف وفعل الممثل ومسؤوليته على خشبة المسرح وأمام واقع يصارع الفشل والاضمحلال».

هكذا تُقدّم مسرحية «هاملت ماكينة2» لفرقة زقاق المسرحية والتي ستعرض في 15، 16، 17، 18، 19، أيلول (سبتمبر) 2010 على خشبة مسرح دوّار الشمس، الطيونة، بيروت الساعة الثامنة والنصف مساءً. إخراج: عمر أبي عازار/ دراماتورجيا: المجموعة – فرقة زقاق/ سينوغرافيا: عمر أبي عازار وكوباياشي/ إضاءة: كوباياشي ومي فرّا / أداء: جنيد سري الدين، دانيا حمود، كريستال خضر، ليا أبي عازار، مايا زبيب وهاشم عدنان.

لقطة من فيلم «كل يوم عيد» (القدس العربي)

نقاد يتهمون الفيلم المصري «المسافر» بالغموض والإرتباك ومعاداة الجمهور

■ الأسكندرية(مصر) ـ (د ب أ): قوبل صناع الفيلم المصري «المسافر» بهجوم واسع من النقاد الذين اعتبروه فيلما غامضا يضم الكثير من الأخطاء في حين رد بطله النجم عمر الشريف على الهجوم بالقول إن الصحف يكتب بها الكثير من «التفاهات».

عرض الفيلم الذي انتهى تصويره قبل أكثر من عام ونصف لأول مرة في مصر في افتتاح مهرجان الأسكندرية السينمائي مساء الثلاثاء الماضي بينما نظمت ندوة ظهر امس الأربعاء حضرها أبطاله عمر الشريف وسيرين عبد النور وشريف رمزي ومخرجه أحمد ماهر وحشد كبير من الصحفيين والنقاد.

وقالت الناقدة خيرية البشلاوي رئيسة المهرجان السابقة إن الفيلم مرتبك جدا ويضم دلالات غير مفهومة وقفزات تاريخية فيما يخص شخصيات أبطاله معظمها «غير مقنع بالمرة بشكل يجعله مليء بعلامات الإستفهام وكأن الهدف منه معاداة الجمهور المصري الذي لن يجد فيه أي قدر من المتعة» ، مشيرة إلى أنها، كناقدة متخصصة، لم تستطع مواصلة مشاهدته حتى النهاية.

وقال الناقد أحمد فهمي إن الفيلم سيء واختيارات المخرج للأبطال لا تتناسب مع النص، وتحديدا اختيار اللبنانية سيرين عبد النور، خاصة مع الميزانية الكبيرة التي رصدت له من جانب وزارة الثقافة المصرية التي تصدت لإنتاجه.

وقال الناقد محمود علي، الرئيس الأسبق لتحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون الحكومية، إن الجمهور المصري لن يقبل على مشاهدة الفيلم لأنه عمل غامض جدا ، معتبرا أن هذا فشل من مخرج العمل في توصيل رسالة الفيلم خاصة وأن السينما يجب أن تضم قدرا من المتعة والتسلية.

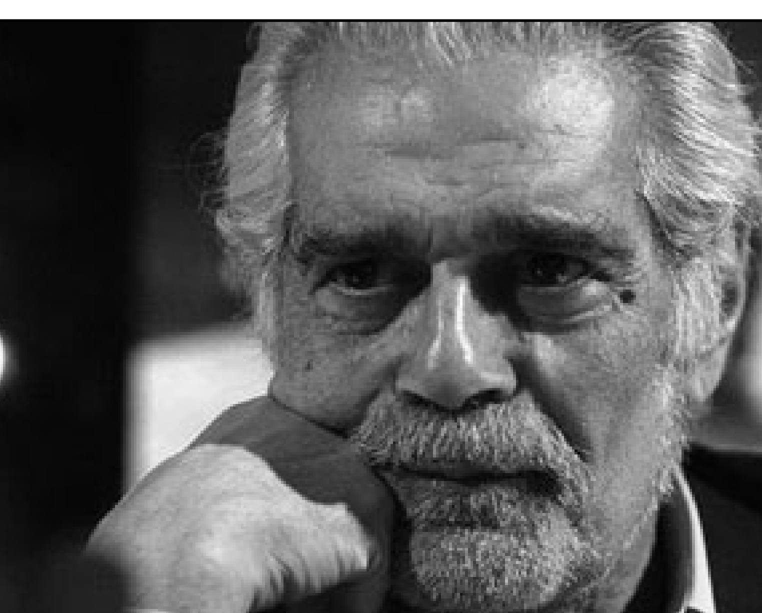
واستنكر الناقد نادر عدلي تأخر عرض الفيلم أكثر من عام كامل في دور العرض المصرية رغم أنه من انتاج وزارة الثقافة ، منوها إلى أن رغبة مخرجه في التجوال به في المهرجانات لا يمكن أن تكون مبررا لرفض عرضه تجاريا باعتبار العرض التجاري هو المقياس الحقيقي لنجاح أو فشل الأفلام السينمائية.

وهاجم الناقد فوزي ابراهيم رئيس تحرير مجلة الكواكب محاولات المخرج أحمد ماهر لاستعراض عضلاته طيلة الأحداث مما طغى على الفيلم ومنع من خروجه بالشكل اللائق بأسماء ابطاله والميزانية المرصودة له.

ورد المخرج قائلا إن مجرد إثارة الفيلم لكل هذا اللغط دليل على نجاحه ، مستنكرا ربط النقاد المتخصصين بين جودة العمل الفني ونجاحه الجماهيري محاولا تفسير التقنيات التي استخدمها باعتبارها شكلا جديدا على السينما المصرية.

وقال ماهر إنه قام بتعديلات على الفيلم بعد عرضه في مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي بالفعل لكنه لم يتدخل بالحذف أو الإضافة على الإطلاق لأن الفيلم، على حد قوله، «مصنوع بأسلوب لا يصلح معه حذف أي من مشاهده» وقال النجم عمر الشريف إن بعضا من الأراء النقدية ضد الفيلم حقيقية لأنه ليس فيلما سهل الفهم أو يمكن أن يحبه الجمهور ، مشيرا إلى أنه كان يعلم هذا منذ البداية لكن هذا ليس مبررا لهجوم النقاد والصحفيين عليه «لأن هناك الكثير منهم يكتبون تفاهات بلا قيمة».

وأضاف النجم الكبير إنه لا يمكن محاكمة الأفلام السينمائية وفقا لأذواق الجمهور فقط «أفلام لعبقري مثل فيلليني لم تعجب الجمهور لكن هذا لا يعني أنه مخرج سيء أو أنه قدم أفلاما سيئة». وفاجأ الشريف الحضور بالقول إن الجمهور المصري ليس مثقفا سينمائيا «أنا شخصيا لا أعتبر إسماعيل ياسين ممثلا حقيقيا لكن أفلامه ناجحة جدا على المستوى الجماهيري».



عمر الشريف في لقطة من فيلم «المسافر»